بدرس كتاب الطبيعة الذي تلوح فيه الحقائق الراهنة المبنية بحكمة الخالق على خلاف اولئك الخياليين الذين يقدّمون اوهامهم على درس الطبيعة ويُسكتون صوتها لتغليب آرائهم الباطلة

الطهارة النصرانية

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

ان ما كتبهُ صاحب المصوّر في حثّ النصرانيّة وما نسبهُ اليها زورًا من الفحشاء قد حدا بنا الى كتابة فصل نبيّن فيه ما خُصّت به الديانة المسيحيّة من الطهارة حتى اصبحت الطهارة والنصرانيّة كلمتين مرادفين يلزم كلٌّ منهما الآخر

ظهر السيّد المسيح والشرك الوثني قد طبّق وجه المعمور فزرع في كل الخلائق فساد الاخلاق وارجاس القلوب واستسلام الاجساد للفجور حتى كادت الطهارة لا تدع في الارض بقعة خالية من فظائع النفس الأمّارة. فهذه تواريخ الرومان واليونان وهي طافحة من اخبار الفحشاء السائدة بين طبقات البشر مباشرةً بالقياصرة انفسهم الذين جعلوا قصورهم مأوى لصنوف القبائح حتى الارجاس المنافية للطبيعة كما يخبر المؤرخون عن طرايان وادريان وكلاهما من افاضل القياصرة. وقس عليه بقيّة اعيان الرومان وسدّنة مياكلهم الى آخر طبقات الشعب وغوغاء القوم دون استثناء حكمائهم وفلاسفتهم الذين وصفهم الرسول بهذا الوصف الصادق ورسمهم بسمة العار بقوله (رومية ١ : ١١—٢١): «انهم اذ عرفوا الله لم يمجدوهُ ولم يشكروهُ كإله... وقد زعموا انهم حكماء فصاروا حمقى واستبدلوا بمجد الله الذي لا يدرك الفساد بشبه صورة انسان ذي فساد وطيور وذوات اربع وزحافات ولذلك اسلمهم الله في شهوات قلوبهم الى النجاسة لفضيحة اجسادهم في ذواتهم... اسلمهم الى رأي مرذول حتى يعملوا ما لا يليق ممتلئين من كل اثم وشرّ وزنى... لا فهم لهم ولا نظام ولا ودّ ولا عهد ولا رحمة». وان شئت البيّنات على قول الرسول حسبك ان تنظر حولنا آثار الفحشاء الوثنيّة: هذه افقا مركز هيكل مبنيّ لتقديس الخلاعة

والنجاسة تحت كنف عشتاروت والزهرة. هذه جُبَيل مقام ادونيس اله العشق الدَّنِس. هذه بعلبكّ وهيكلها الفخيم المتطخ بكل اقذار الوثنيَّة. وكذا قل عن كل سراحل فينيقية بل حيثما رفرف النسر الروماني ورعى مجمايتهِ الاديان الاسيوية الجامعة لكل مآثم الاقدمين

*

وُلد الطُّهرُ يوم مولد عيسى والمروءاتُ والهدى والحياءُ
وازدهى الكونُ بالوليد وضاءت بسناهُ من الثرى الارجاءُ
وسرتْ آيةُ المسيح كما يسـري من الفجر في الوجودِ الضياءُ (شوقي)

تلك آيةُ المسيح التي عُرف بها واختارها ميزةً لشخصهِ الكريم ولاهل دينهِ المستقيم اعني الطهر والنقاوة. فانهُ وُلد جلَّ جلالهُ من والدةٍ عذراء. اختـار لهُ اباً بالذخيرة شبيهاً بالعذراء مريم في طهارتهِ وعفافهِ. اتخذ لهُ سابقاً امام وجههِ يوحنَّا المعمدان الذي قدَّسهُ في احشاء والدتهِ ومات شهيد الطهارة لدفاعهِ عن حقوق سرّ الزواج الطاهر. اصطفى لهُ من التلاميذ والحواريين قوماً من ذوي الصلاح شهد لنقاوتهم (يو ١٣: ١١) واحبَّ منهم اعظمهم طهراً يوحنَّا الحبيب لانهُ كان بتولاً واليهِ سلَّم امَّهُ الطاهرة على الصليب (يو ١٩: ٢٣). افتتح دعوتهُ لبني اسرائيل بتطويب الطهارة بقولهِ (متى ٥: ٨): «طوبى للانقياء القلوب فانَّهم يعاينون الله». لم يكتفِ بتحريم الزنى بل حرَّم الفكر بهِ ومجرَّد النظر الى المرأة على سبيل الشهوة. هو وحدهُ امكنهُ في وسط كل اعدائهِ ان يفحمهم بقولهِ (يو ٨: ٤٦): «من منكم يثبت عليَّ خطيئةً». وان كان اولئك الاعداء اخذوا عليهِ انهُ يأكل مع الخطأة ويتردَّد معهم كان جوابهُ حاضراً انهُ هو الطبيب الذي اتى ليدعو الخطأة ليشفيهم من اسقامهم الادبيَّة ويردَّ قلوب الابناء الى ابيهم السماويّ بالتوبة النصوح. وقد بلغ بهِ حبُّهُ للطهارة انهُ اراد انَّ جسدهُ الطاهر لا يسكن زمناً قليلاً بعـد موتهِ الَّا في قبر جديد لم يوضع فيهِ احد قبلهُ (يو ١٩: ٤١)

وكما كان مثال الطهارة في كل حياتهِ اراد ان يمتاز تلاميذهُ ببرارة السيرة. وضع لهم اسرارًا تنشئ في قلوبهم البرَّ والصفـاوة. وضع لهم سرّ المعاد ليستأصل من

نفوسهم الخطيئة الاصلية. أيدهم بالروح القدس في سرّ التثبيت ليجاهدوا الجهاد الحسن ضد قوّات الارواح النجسة وشهوات العالم. منحهم سرّ التوبة حتى اذا خطئوا بفعل الضعف البشري ارعوا بالندامة تائبين الى ربّهم قانتين. اعطاهم خبز الملائكة ومنّ السماء (يو ٦ : ٣١ — ٥٢) برّ المختارين والسُّلاف التي تنبت العذارى (زكريا ٩ : ١٧). اعطاهم الزواج الطاهر ذا العروة الوثقى غير المنفصمة بالطلاق والذي يزين بالعفاف حياة الزوجين ويشرّف العيال المسيحيّة. اقام لهم كهنوتاً طاهراً تتدفّق الطهارة من معينه في اربع خوافق المعمور ويفرض غالباً على ذويه العفّة التامّة. فتح لهم اخيراً باب الدهر بعد ان يمسح الكهنة بالزيت المقدّس اعضاءهم لئلّا تبقى فيها تبعة الخطيئة (يعقوب ٥ : ١٤)

وكل هذه الاسرار قد اودعها المسيح كنيسته التي اتخذها كعروسه الروحيّة « فاحبّها وبذل نفسه لاجلها ليقدّسها مطهّراً اياها بغسل الماء وكلمة الحياة ويهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا كلف فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك بل تكون مقدّسة منزّهة من كل عيب » (افس ٥ : ٢٥ — ٢٧)

هي كنيسة المسيح التي نشرت بعد صعود عروسها الالهي الى السماء راية الطهر والقداسة فما حلّت في بلادٍ او مدينةٍ او قريةٍ الّا جعلت ميزتها البرّ والعفاف. قال الرسول بولس المصطفى لاهل كورنتس (٦ : ٩) : لا تضلّوا فانّهُ لا الزناة ولا عبّاد الاوثان ولا الفسّاق ولا المتدنون ... يرثون ملكوت الله وقد كان بعضكم كهؤلاء. ولكنّكم قد اغتسلتم وتقدّستم وبُررتم باسم ربنا يسوع المسيح وبروح الهنا « الذي » بذل نفسهُ لاجلنا ليفتدينا من كل اثم ويطهّر لنفسه شعباً غيوراً على الاعمال الصالحة » ومثلهُ كان يحرص بقيّة الرسل على المدعوّين للنصرانيّة حتى انّ بطرس الصفا في رسالته الاولى (٢ : ٤ — ١١) لم يأنف ان يوجّه بهذا الكلام الى المؤمنين : « كونوا انتم ايضاً مبنيّين كالحجارة الحيّة بيتاً روحيّاً وكهنوتاً مقدّساً لإصعاد ذبائح روحيّة مقبولة لدى الله بيسوع المسيح ... انتم جيلٌ مختار وكهنوت ملوكي وامّة مقدّسة وشعبٌ مقتنى لتخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة الى نوره العجيب ... فأسالكم ان تبتعدوا عن الشهوات التي تحاربُ النفس »

تلك كانت دعوة الرسل للنصارى الاوّلين. وعلى مثالهم جرى خلفاؤهم فلا ترى

في اعمال الآباء وفي تعاليم الملافنة ومواعظ الخطباء شرقاً وغرباً وجيلاً بعد جيل الى يومنا الّا التحريض المتواتر على لزوم الطهارة والتجرُّد عن الشهوات الباطلة. فلو اردنا ان نجمع ما كُتب في الكنيسة المسيحيَّة منذ القرون الاولى للنصرانيَّة من عهد اقليمس واغناطيوس واوريجانس وترتليان الى عهدنا عن الطهارة في كل مظاهرها لألَّفنا مكتبة واسعة تضاهي اكبر الخزائن الكتبيَّة. ولا غرو فان الفم ينطق كما قال السيِّد المسيح من ملْ القلب (متى ١٢: ٣٤)

وليست تلك التعاليم ميتةً منزويةً في بطون الكتب لكنَّها حيَّةٌ ناطقة مؤثرة في القلوب فالكنيسة لا تزال تدعو ابناءها الى الطهارة بكل الوسائل. تدعوهم اليها باسرارها المقدَّسة مصدر القداسة وينبوع البرارة. تدعوهم اليها برُتبها الجليلة التي تحيي في النفوس ذكر البرّ والصلاح. تدعوهم اليها بالتصاوير التقويَّة المزيَّنة بها جدران هياكلها التي تمثل غالباً الطهر والعفاف او جهاد القديسين في سبيل البرّ ليفوزوا بنفوسهم بتضحية كل شهوات العالم. تدعوهم اليها بمواسمها واعيادها المتَّصلة في عامَّة السنة كسلسلة سماويَّة تعتصم بها النفوس. تدعوهم اليها باعمال التوبة كالصوم والانقطاع عن بعض المآكل الدسمة ليعرف المؤمن ان يقمع اهواء قلبه ويؤوب الى الله بانسحاق القلب وتجديد حلَّة براءته بغسلها بدموعه وبدم الحمل الالهي. تدعوهم اليها بمواعظ رُعاتها وبالرياضات التقويَّة والتفرُّغ لتأمُّل حقائق الآخرة وبتخصيص فئة من رجالها لا همَّ لهم الّا صيانة كنز الطهارة في قلوب المؤمنين وروض النفوس من ادرانها لتكون هياكل مقدَّسة يسكنها الروح القدس بنعمته ويؤهلها لفردوس الابرار

فمن يجسر يا تُرى ان يقول — الّا الكاذب المنافق او الجاهل المطبق — بان هذه الوسائل قليلة او قاصرة فيحتجّ بمثال بعض الجهَّال من النصارى الذين رغماً عن الكنيسة وارباب يطلقون العنان لشهواتهم القبيحة كأنَّ النصرانيَّة هي المسئولة عن اعمال هؤلاء الاشرار وهي اوَّل من يتأسَّف لمآثمهم بل رُبَّما رشقتهم بسهام حروبها واوجبت عليهم عقوباتها الروحيَّة وزواجرها الادبيَّة رافعةً حكمهم الى المسيح الدَّيان في يوم الحساب حيث ينالون الجزاء عمَّا اقترفوهُ من الذنوب

على انَّهُ والحمد لله ليس هؤلاء بالعدد الاوفر. فانَّ ابناء كنيسة المسيح قد عرفوا

في كل آونة وازمنة انَّ في الطهارة عزّهم وشرف دينهم فلصَوْن تلك الجوهرة الثمينة ضحّوا لكل نفس ونفيس

فليت شعري ما الذي حمل الألوف المؤلّفة من شهداء النصرانيّة على اقتحام كل عذابات المغتصبين الّا فرارهم من ارجاس الوثنيّة واقذارها الدنسة فآثروا الموت كراماً على كل الملاذ المحرّمة :

يستعذبون منايا هم كأنّهم لا يأسفون على الدنيا اذا قُتلوا

وكثيرًا ما كان يترصّد المضطهدون اعفاف النصارى فضلًا عن دينهم . فليقرأ من احبّ تراجم تلك العذارى الصالحات اللواتي جاهدن جهاد الابطال عن كنز طهارتهنّ لم يكترثن لا الوعد ولا للوعيد فقضينَ في عزّ شبابهنّ ونلنَ ببوتهنّ اكليلًا مضاعفاً اكليل الاستشهاد واكليل البتوليّة . هذه اكوبلينا الجُبيليّة . هذه كاترينا الاسكندريّة . هذه سيسيلية الرومانيّة . هذه اغاثا الصقليّة . فكلهنّ وبيرات مثلهنّ تفتخر بهنّ كل بلاد النصرانيّة وتتقلّد آثارهنّ

وان انتقلت مذ اوائل القرن الرابع للمسيح الى القرون التالية فتوغّلتَ براري جزيرة العرب والعراق وما بين النهرين او قفار اوربّة لرأيت قوماً لا يفي بهم احصاء من رجال ونساء بينهم الملوك والاشراف والعلماء والفتية والفتيات في زهرة العمر فكل هؤلاء ماذا قصدوا بخروجهم من العالم بزهدهم في حطام الدنيا بنبذهم كل ملاذّ الحياة بعيشهم الشظف التقشف سوى حفظ طهارتهم من وباء العالم الشرّير . فازهرت بهم الصحاري والفلوات التي حوّلوها الى حدائق سماويّة عطّرت الشعوب بأريج فضائل اصحابها

ومثلها الاديرة التي كان يتقاطر اليها الجماهير من المسيحيين ليعيشوا فيها عيشة الملائكة في اجساد بشريّة . وهذه الاديرة تُعدّ بالالوف في كل انحاء المسكونة وكثيرًا ما فاح اريج فضل ساكنيها في جهات الشرق وبهمّتهم سلمت العلوم القديمة كما سلمت الآداب بمثال مناسكهم وقداسة حياتهم

وبين هؤلاء الصالحين نفوسٌ تعشّقت العفاف والبرارة فبرزت في هذا الميدان الروحيّ . فكلٌّ من يتفوّه باسماء لويس غونزاغا واستنسلاوس كستكا ويوحنّا بركمانس وترازية ووردة امبركة يتطرّ لسانهُ بذكرى طهرهم الملائكي خاقتصّ الوف

من الشبّان آثارهم وتقلّدوا فضائلهم ومبرّاتهم وماتوا ناشرين ألوية البرارة لم يدنّسوا ثوبهُ بشائبةٍ مهما كانت صغيرة

وليس عصرنا هذا رغماً عمّا انتشر فيهِ من الفساد بمساعي اهل الكفر خالياً من فتيات المسيحيين التابعين للحمل الطاهر وللبتول الطاهرة بالعيشة البارّة المتزّهة عن كل عيب صارخين مع الشاعر :

فالمنايا ولا الدنايا وخيرٌ ... من ركوب المنا وركوب الجبان

أدخل ان شئت ان تختبر الامر في دير راهبات السجود او راهبات المحبّة او راهبات العجّز او ايّ دير كان افليس تعدُّ نفسك في عالم اسمى وارفع من عالمنا هذا اعني عالم النقاوة والفضيلة والعيشة الملائكيّة

وكم عرفنا من شبّان وشابّات ترى على محيّاهنّ ملامح النقاوة وصفاوة القلوب يشعر من يتقرّب اليهم بعواطف سامية شريفة تنسيه الارض ودناوتها. اذا سمعوا كلمة مستهجنة او رأوا فعلاً ذميماً نفروا منهُ نفور المرء من الدّ اعدائه وعدُّوا العالم وكنوزهُ كزبل بمثابة كتر طهارتهم

ولا نقول ذلك على سبيل الحدس والتخمين فاننّا نحن الكهنة نبلغ الى اعماق القلب البشري ونشاهد مكنوناتهِ وطيّاتهِ. فكم من مرّة شكرنا الربّ على ما وجدنا في نفوس الاخيار من البرّ والطهارة وتحقّقنا انّ لله اصفياء لم يسقطوا قطّ في اشراك شيطان الخلاعة بل كادوا لا يعرفون اخفّ الخطايا والزلّات

وكما عرفنا الطهارة في الافراد بل وجدناها في معظم العيال المسيحيّة فانّ الزواج المقدّس ربط القلوب بروابط امتن من علاقات الاجساد فدخلت الفضيلة في تلك البيوت وجعلت كل اهلها متمتّعين بسعادة الحياة الصالحة ونفت عنها كل دواعي النفور مشاطرين بعضهم السرّاء والضرّاء بالصبر والتؤدة مباركين لله في كل ما تقدّره عنايتهُ الابويّة

فالشكر كل الشكر لكنيسة المسيح التي رفعت بين الشعوب منار الطهارة واظهرت للعالم فضل البرارة فانها وحدها التربة التي تنبت فيها زنبقة العفاف وتجنب الى النفوس السيرة الفضلى وتؤهلهم الى العيشة السماويّة بصحبة الملائكة والابرار والحظوة بنظر الله الذي لا يعاينهُ وجهاً لوجه الّا انقياء القلوب